ويحكى القرآن الموقف قائلاً :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ[1] فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا[2] حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

وكلمة « النسوة » ، وكلمة « نساء » تدلُّ على الجماعة ، لكن مفردَ كلٍّ منهما ساقط فى اللغة ، فمفرد « نسوة » امرأة ؛ ومفرد « نساء » أيضاً هو « امرأة » .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة « امرأة » له مثنى هو « امرأتان » ، لكن فى صيغة الجمع لا توجد « امراءات » ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدتها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة :

﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف]

وما قُلْنَه هو الحق ؛ لكنهن لم يَقُلْنَ ذلك تعصباً للحق ، أو تعصباً للفضيلة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٩٨/٤) : « قيل : امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه . وقيل : امرأة الحاجب . عن ابن عباس وغيره » .

(٢) شغفه : أصاب شغاف قلبه أى غلافه ، أو أصاب باطنه وصميم قلبه . قال تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف] أى : أصاب شغاف قلبها بحب قوى نافذ كالسهم . [القاموس القويم ٣٥٠/١] .

وشاء سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهن ، ففضح الهدف المختفى وراء هذا القول فى الآية التالية حين قال :

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ.. (٣٢)﴾ [يوسف]

والمكر هو سَتْر شىء خلف شىء ، وكأن الحق يُنبِّهنا إلى أن قول النسوة لم يكن غضبةً للحق ؛ ولا تعصباً للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنِّكاية[1] بامرأة العزيز ، وفَضْحاً للضلال الذى أقامت فيه امرأة العزيز .

وأردْن - أيضاً - شيئاً آخر ؛ أن يُنزلْنَ امرأة العزيز عن كبريائها ، وينشرن فضيحتها ، فَأتيْنَ بنقيضين ؛ لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهى امرأة العزيز[2] ، أى : أرفع شخصية نسائية فى المجتمع ، قد نزلت عن كبريائها كزوجة لرجل يُوصَفُ بأنه الغالب الذى لا يُغلب ؛ لأن كلمة « العزيز » مأخوذة من المعانى الحسية .

---

(١) نكى العدو نكاية : أصاب منه . وقد نكيت فى العدو أنكى نكاية أى هزمته وغلبته ، فنكى ينكى نكىً . [لسان العرب ـ مادة : نكى] .

(٢) تدور معانى العزيز حول من بيده السلطان والقوة وبيده مقاليد الحكم لا يراجعه أحد شيئاً ، بل هو يملك سلطة الأمر والنهى . [راجع : لسان العرب ـ مادة : عزز] .

فيُقـال : « الأرض العزَاز »[١] أى : الأرض الصخـرية التى يصعب المشى عليها ، ولا يقدر أحـد أنْ يطأها ؛ ومن هذا المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

فكيف بامـرأة العزيز حـين تصـير مُـضْغـة[٢] فى الأفواه ؛ لأنـها راودتْ فتاها وخادمها عن نفسه ؛ وهو بالنسبة لها فى أدنى منزلة ، وتلك فضيحة مزرية[٣] مشينة[٤] .

وقالت النسوة أيضاً :

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا.. (٣٠) ﴾ [يوسف]

والحب منازل ؛ وأول هذه المنازل « الـهوى » مـثل : شقـشقـة[٥] النبات ، ويُقال : « رأى شيئاً فهواه » .

---

(١) قـال ابن منظور فى [لسـان العـرب ـ مادة : عـزز] : « العَـزَز والعـزاز : المكان الصلب السريع السـيل . وقال ابن شـميل : العزاز مـا غلظ من الأرض . وإنما يكون فى أطرافـها ، وفى الحديث أنه ﷺ نهى عن البول فى العزاز لئلا يترشش عليه » .

(٢) مضغ يـمضغ : لاك . ومضـغ الطعام يمـضغه مـضغـاً . والمضـغة : القطعة من اللحم . وأمضغ التـمرُ : حان أن يُـمضغ . وتمر ذو مَضْغَة : صلب مـتين يُمـضـغ كثيـراً . ومُضَغ الأمور : صغـارها [لسان العرب : مادة ـ مـضـغ] والمقصود تشـبيههـا بقطعة اللحم التى يلوكها الناس فى أفواههم .

(٣) الإزراء : التهاون بالشىء . وازدريته أى حقرته ، والازدراء : الاحـتقار والانتقاص والعيب ، وهو افتعال من زريت عليه زراية إذا عبته . [لسان العرب ـ مادة : زرى] .

(٤) الشـين : العيب . وهـو خلاف الزين . قـال الفـراء : العين والشَّـيْن والشَّنار أى : العـيب ، والمشاين : المعايب والمقابح . [لسان العرب ـ مادة : شين] .

(٥) شق النبات يـشق شقوقـاً ، وذلك فى أول ما تنفطر عنه الأرض . وشقّ نابُ الـصبى يشق شقوقاً : فى أول ما يظهر . [لسان العرب ـ مادة : شقق] .

وقد ينتهى هذا الهوَى بلحظة الرؤية ، فإذا تعلَّق الإنسان بما رأى ؛ انتقل من الهوى إلى العَلاقة[١] .

وبعد ذلك يأتى الكلف[٢] ؛ أى : تكلَّف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العَلاقة . ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة فيها التقاء وهى العشق[٣] ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعلن كل طرف كَلَفه ؛ ولذلك يسمونه « عاشق ومعشوق » .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها « التدليه »[٤] ؛ أى : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى هُزَال ويقال « تبلت[٥] الفؤاد » أى : تاه الإنسان فى الأمر .

ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الهُيَام[٦] ، أى : يهيم الإنسان على

---

(١) علِق الشيء علقاً وعَلِق به علاقة وعُلوقاً : لزمه . والعلاقة : الهوى والحب اللازم للقلب ، وقد علِقها علقاً وعلاقة وعلق بها عُلوقاً وتعلَّق بها : أحبها . وقال اللحيانى : العَلَق الهوى يكون للرجل فى المرأة . [لسان العرب - مادة : علق] .

(٢) الكلف : الولوع بالشىء مع شغل قلب ومشقة . وكلف بالشيء كَلَفاً وكُلْفة : لهج به . وكلف بها أشد الكَلَف : أحبها . ورجل مكلاف : محب للنساء . [لسان العرب - مادة : كلف] .

(٣) العشق : شدة الحب . وسمى العاشق عاشقاً لأنه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العشقة إذا قطعت . والعشقة : شجرة تخضر ثم تدِقّ وتصفر . عن الزجاج . [لسان العرب - مادة : عشق] .

(٤) قال ابن القيم فى روضة المحبين (ص ٥٩) : « وأما التدليه ففى الصحاح : التدليه ذهاب العقل من الهوى ، يقال : دلهه الحب ، أى : حيَّره وأدهشه » .

(٥) قال فى روضة المحبين (ص ٤٩) : « أما التبالة فهى فعالة من تَبَله إذا أفناه . قال الجوهرى : تبلهم الدهر وأتبلهم إذا أفناهم . وتبله الحب وأتبله ، أى أسقمه وأفسده » .

(٦) الهيام : كالجنون . وقد هيَّمه الحب . والاسم الهيام . ورجل هَيْمان : محب شديد الوجد . قال ابن السكيت : الهَيْم : مصدر هام يهيم هَيْماً وهيماناً إذا أحب المرأة . والهُيَّام : العُشَّاق . والهيوم : أن يذهب على وجهه . [لسان العرب - مادة : هيم] .

وجـهـه ؛ فـلا يعـرف له هدفـاً ، فـإن تبع ذلك جـرم صـار اسـمـه « جوى »[1] .

تلك هى مراحل الحب الـتى تمر بالقلب[2] ، والقلب ـ كمـا نعلم ـ هو الجهاز الصنوبرى ، ويُسمُّـونه مَقَرّ العقائد المنتهيـة ، والتى بحثها الإنسان واعتقدها بالفعل .

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشُمُّ ويسمع ويذوق ويلمس ، فـإذا أدرك بعضـاً من الأمور ؛ فـهو يعـرضـهـا على العقل ليوازن بينهـا ؛ ويختار الأكثر قـبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك الأمور المقبولة إلى القلب ؛ لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسـائل العقلية ؛ فقـد تأتى مسائل أخرى تزحـزحها ؛ ولذلك يُقال للأمـور التى استقرت فى الـقلب « عقائد » ، أى : شىء معـقود لا ينحل أبداً .

وما يصل إلى هذه المـرتبة يظهـر أثره فى إخضاع سلوك حـركة الحياة عليه ، وإذا مـا استقر المبدأ فى نفس الإنسـان ؛ فهو يجعل كل حركته فى ظل هذا المبدأ الذى اعتقده .

وهكذا نعرف : كـيف تمرُّ العقـيدة بعدَّة مـراحل قبل أن تستـقر فى النفس ، فالإدراك[3] يحـدث أولاً ؛ ثم التعـقُّل ثانيـاً ؛ وبعد ذلك يعـتـقـد

---

(١) الجوى : الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن . [لسان العرب ـ مادة : جوى] .

(٢) ذكر ابن القيم فى روضة المحبين (ص ٢٥) نحواً من ستين اسماً للمحبة ، لكل اسم مقام أو درجة فى الحب .

(٣) ويتفق مراد الإمام مع ما ذهب إليه علماء النفس عند اختيار الأشياء ، فلا بد من الإدراك ، ثم الانفعال ، ثم النزوع ، أى : الاختيار .

الإنسان الأمر، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وفقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة : ﴿ شغفها حبًّا ..(٣٠) ﴾ [يوسف]

تعنى أن المشاعر انتقلتْ من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ، والشِّغاف هو الغشاء الرقيق الذى يستر القلب ؛ أى : أن الحب تمكّن تماماً من قلبها .

وقولهن :

﴿ إنَّا لنراها في ضلالٍ مُّبينٍ (٣٠) ﴾ [يوسف]

هو قول حَقٌّ أُريد به باطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يفضح مقْصدهن :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً[1] وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ[2] وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ[3] لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾

---

(١) تكىء يتكىء : جلس متمكناً ، أصله اوتكأ . قال تعالى : ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) ﴾ [الزخرف] وقال أيضاً : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ .. (٣١) ﴾ [الكهف] . والمتكأ : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً .. (٣١) ﴾ [يوسف] أى : مكاناً مريحاً يجلسن فيه متمكنات متكئات . والمتكأ : ما يتكىء عليه الإنسان من مخدة أو أريكة . [القاموس القويم ٢/٣٥٣].

(٢) أكبر الشيء : عدَّه كبيراً ، أو عظم تأثره به فرآه كبيراً . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ .. (٣١) ﴾ [يوسف] [القاموس القويم ٢/١٥٠] .

(٣) حاش لله ، أى : براءة لله ومعاذاً لله . قال ابن الأنبارى : معنى حاشى فى كلام العرب أعزل فلاناً من وصف القوم بالحشى وأعزله بناحية ، ولا أدخله فى جملتهم . [لسان العرب ـ مادة : حشا] .

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لَهُنَّ الكلام عن الذى حدث بينها وبين يوسف ؟

لا بُدَّ أن هناك مرحلة بين ما حدث فى القصر ؛ وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وامرأته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون مَنْ نقل الكلام إلى خارج القصر ؛ إنسان له علاقتان ؛ علاقة بالقصر فسمع ورأى وأدرك ؛ ونقل ما علم إلى مَنْ له به علاقة خارج القصر.

وبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتى ثرثرن بالأمر ، وقال العلماء[1] : هُنَّ خمسة نساء : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب (أى : سائس الخيل) ، وامرأة السجان .

وهؤلاء النسوة يَعِشْنَ داخل بيوتهن ؛ فمَنِ الذى نقل لَهُنَّ أسرار القصر ؟

لا بُدَّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسلِّى أهله ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ؛ ثم نقلتْ زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر ؛ وكيف يمكرن بها ؛ أرسلت إليهن :

﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف]

والمتكأ هو الشىء الذى يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مَلَلٌ

(١) انظر : تفسير القرطبى (٣٤٩٨/٤) ، ذكره عن ابن عباس وغيره .

من كيفيـة جلْسته ، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سـيطول وقتها ، وقـد خططتْ لتكشف وَقْعَ رؤيـة يوسف عليـهن ، فـقدَّمـتْ لكل منهن سكيناً ؛ وهو ما يوحى بأن هناك طعاماً سوف يؤكل .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

ويُقـال : أكبـرْتَ الشيء ، كـأنك قـد تخـيَّلتـه قـبل أن تراه على حقيـقته ؛ وقد يكون خـيالك قد رسم له صورة جمـيلة ، إلا أنك حين ترى الشيء واقعاً ؛ تكبر المرائى عن التخيُّل .

والمثل أن إنساناً قد يُحدِّثك بخير عن آخر ؛ ولكنك حين ترى هذا الآخر تُفاجأ بأنه أفضل مما سمعتَ عنه .

والشاعر يقول :

كَادَتْ مُسَـاءلةُ الرُّكْبانِ تُخبرنى عـن جَعْفرِ بن حبـيبٍ أصدقَ القيم

حتَّى التقـيْنَا فَلا واللَّهِ مَا سَمِعتْ أُذنى بأطيبَ مِمَّـا قَدْ رأى بَصَرِى

ويقولون فى المقابل : سماعك بالمعيدى خير من أن تراه[1] . أى : يا ليتك قد ظللتَ تسمع عنه دون أن تراه ؛ لأن رؤيتك له ستُنقِص من قدر ما سمعت .

---

(١) هذا مثل يُضرب لمن خبره خير من مرآته ، يُضـرب للرجل الذى له صيت وذكـر ، فإذا رأيته ازدريت مَرآته . ومَعَدٌّ : حَىٌّ أو اسم للقبيلة . فأمـا قولهم فى المثل : تسمع بالمعيدى لا أن تراه ، فمخفف عن القياس اللازم فى هذا الضرب . [لسان العرب ـ مادة : معد] .

وهُنَّ حين آذنَّ امرأة العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه ، تخيَّلْنَ له صورةً ما من الحُسْن ، لكنهُنَّ حين رَأيْنَهُ فاقتْ حقيقته المرئية كل صورة تخيَّلْنَها عنه ؛ فحدث لهُنَّ انبهار .

وأول مراحل الانبهار هي الذهول الذى يجعل الشيء الذى طرأ عليك يذهلك عما تكون بصدده ؛ فإن كان فى يدك شيء قد يقع منك.

وقد قطعتْ كلٌّ منهن يدها بالسكين التى أعطتها لها امرأة العزيز لتقطيع الفاكهة ، أو الطعام المُقدَّم لَهُنَّ .

وقال الحق سبحانه فى ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ[1] أَيْدِيَهُنَّ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

وهل هناك تصوير يوضح ما حدث لَهُنَّ من ذهول أدقّ من هذا القول[2] ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾[يوسف]

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٠٣/٤) : « قال مجاهد : قطعنها حتى ألقينها . وقيل : خدشنها . وروى ابن أبى نجيح قال : حزّاً بالسكين . قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعاً تبين منه اليد ، إنما هو خدش وحزّ ، وذلك معروف فى اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٤٧٦/٢) : « ذكر غير واحد أنها قالت لهن ـ بعد أن آتت كل واحدة منهن سكيناً ـ : هل لكُنَّ فى النظر إلى يوسف ؟ قُلْنَ : نعم . فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن ، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع ، فرجع وهُنَّ يحززن فى أيديهن ، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن . فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتّن هذا ، فكيف ألام أنا ؟ » .

وكلمة : ﴿ حَاشَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف]

هى تنزيه لله سبحانه عن العجز عن خَلْق هذا الجمال المثالى ، أو : أنهُنَّ قد نَزَّهْنَ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة بينه وبين امرأة العزيز ، أو : أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التى يعرفنها[1] ؛ فقُلْنَ : لا بدّ أنه ملَكٌ كريم .

وصورة الملك كما نعلم هى صورة مُتخيَّلة ، والإنسان يحكم على الأشياء المُتَخيَّلة بما يناسب صورتها فى خياله ، مثلما نتخيل الشيطان كأبشع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر ؛ فما تراه بَشِعاً قد لا يراه غيرك كذلك ؛ لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى أخرى .

فالمرأة الجميلة فى أواسط إفريقيا فى نظر الرجل هى ذات الشفاه الغليظة جداً ؛ أو صاحبة الشعر المُجعَّد والمُتموج .

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لونٌ من الجمال ينجذب إليه الرجل فى بعض الحالات ؛ بدليل أن بعضاً من السيدات ذوات الشعر الناعم للغاية يذهبْنَ إلى مُصفِّفة الشعر ، ويطلبْنَ منها تجعيد شعورهن .

---

(١) قال القشيرى أبو نصر : وذكرت النسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر ، بل هو فى صورة ملك ، وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين] والجمع بين الآيتين أن قولهن (حاش لله) تبرئة ليوسف عمّا رمتْه به امرأة العزيز من المراودة . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥٠٥) .

إذن : فالجمال يُقاس بالأذواق ؛ هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا ؛ وذاك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال فى النفس الإنسانية على قَدْر مُقوِّمات الالتقاء فى الانسجام .

ولذلك يُقال فى الريف المصرى هذا المثل «كل فُولة ولها كَيَّال» .

ونجد شاباً يتقدم لفتاة يرغب فى الزواج منها ؛ وما أنْ يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع فى هَوَاها ، ويتعجَّل الزواج منها ، وهذا يعنى أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثانى.

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أحدَ بقادر على أن يمنع القبول من كل طرف للطرف الآخر ؛ وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا نعرفه نحن ؛ لأنه سبحانه الذى يكتب القبول ؛ ويُظْهِر فى المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفس المسألة تحدث فى نفسية المرأة .

إذن : فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام ؛ قُلْنَ :

﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن يوسف هو الصورة العليا فى الجمال التى لا يوجد لها مثيل فى البشر[1] .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » أخرجه أحمد فى مسنده (٢٨٦/٣) والحاكم فى مستدركه (٥٧٠/٢) .

وأورد السيوطى فى كتابه (الدر المنثور) (٥٣٢/٤) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا أتت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تفتتن به . وعزاه للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ والطبرانى .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز رداً عليهن :

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى[(1)] فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ[(2)] ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ[(3)] ﴿٣٢﴾ ﴾

وكأنها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر في مراودتها له ، فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر .

وقولها : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف]

مُكوَّن من « ذا » إشارة ليوسف ، و « ذَٰلِكُنَّ » خطاب للنسوة ، والإشارة تختلف عن الخطاب .

---

(1) لامه يلومه لَوْماً : عذله على عمل لا ينبغي ولا يليق فهو لائم . وتلاوم الرجلان : لام كل منهما الآخر : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القلم] ، وألام : جرّ على نفسه اللوم بفعل ما لا ينبغي فهو مليم : مستحق للوم . قال تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات] أي : مذنب مستحق للوم . [القاموس القويم ٢/٢٠٨] بتصرف .

(2) عصمه يعصمه : منعه ووقاه ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] يحفظك ويقيك ، وقوله : ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود] يحفظني . واعتصم : تمسك بقوة . قال تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران] أي : تمسكوا بدينه . واستعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسك بها ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف] أي : فامتنع مُتمسكاً بعصمته وعفة نفسه وبحفظها من السوء . [القاموس القويم ٢/٢٣ ، ٢٤] .

(3) الصَّغَر يكون مادياً في الحجم ، ويكون معنوياً في القدر والمنزلة وهو ضد الكِبَر . وصغير : في حجمه أو في قدره ومنزلته ، فمن المادي قوله : ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة] ، ومن المعنوي قوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم ١/٣٧٧] .

وهنا موقف أسلوبى ؛ لأن الكلام حين يُنطق به ، أو حين يُكتب ليُقْرأ ؛ له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية[1] ؛ وقد يكون نثراً مسجوعاً[2] أو مُرْسَلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً محكوماً بوزن وقافية .

والمثل على النثر المسجوع هو قول الحق سبحانه :

﴿وَالطُّورِ[3] (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ[4] مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)﴾ [الطور]

وهذا نثر مسجوع بلا تكلُّف ، وأنت إذا سمعتَ أو قرأت كلاماً ؛ فأذنك تأخذ منه على قدر سُمُوِّ أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب إلى أسلوب ، فأذنك تلتقط الفارق بين الأسلوبين .

والمثل نجده فى الرسالة التى كتبها ابن زيدون[5] مُسْتعطفاً ابن جهور:

---

(١) القافية من الشعر : سميت قافية لأنها تقفو البيت . وقال الأخفش : القافية آخر كلمة في البيت.

(٢) السجع : الكلام المقفَّى . وسجع يسجع سَجْعاً تسجيعاً : تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن ، وصاحبه سجَّاعة وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كأن كل كلمة تشبه صاحبتها . قال ابن جنى : سمى سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله . [لسان العرب - مادة : سجع] .

(٣) الطور : جبل بسيناء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر ، قال تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ (١٥٤)﴾ [النساء] ، ويُسمَّى أيضاً : ﴿طُورِ سَيْنَاءَ ..(٢٠)﴾ [المؤمنون] و ﴿وَطُورِ سِينِينَ (٢)﴾ [التين] . [القاموس القويم ١/٤٠٨] .

(٤) الرَّق : الجلد الرقيق يُكتب عليه ، وأُطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [القاموس القويم ١/٢٧٢] .

(٥) هو : أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومى الأندلسى ، أبو الوليد ، وزير كاتب شاعر ، من أهل قرطبة ، ولد ٣٩٤ هـ ، انقطع إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس ، توفى بإشبيلية عام (٤٦٣هـ) فى أيام المعتمد على الله ابن المعتضد . [الأعلام للزركلى ١/١٥٨]. بتصرف .

« هذا العَتْب محمودٌ عواقبه ، وهذه الغَمْرة نَبْوة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى إنْ أبطأ سببه أو تأخر ، غير ضنين ضناه ، فأبطأ الدِّلاء قَبْضاً أملؤها ، وأثقلُ السحابِ مشياً أعقلها ، ومع اليوم غد . ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ، ولا عَتْب عليه فى اغتفاله .

فإنْ يكُن الفعلُ الذى ساء واحداً   فَأفْعالُه اللاتى سَرَرْنَ أُلُوفُ

وهكذا تشعر انتقال ابن زيدون من النثر إلى الشعر ، ولكنك وأنت تقرأ القرآن ، تنتقل من النثر المُرْسل إلى النثر المسجوع إلى النظم الشعرى على وزن بحور الشعر ، فلا تكاد تفرق فى الأسلوب بين شعر أو نثر .

والمثل نجده فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَذَالِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ.. (٣٢) ﴾ [يوسف]

فهى موزونة من بحر البسيط ، ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ[1] مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾ [النور]

وأيضاً قوله الحق :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

(١) قال الأزهرى : قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى : اهدنا الصراط المستقيم ، بالصاد ، وقرأ يعقوب بالسين ، قال : وأصل صاده سين قلبت مع الطاء صاداً لقرب مخارجها . قال الجوهرى : الصراط والسراط : الطريق . [لسان العرب - مادة : صرط] .

وتأتى تلك الآيات فى مواقع قد يكون ما قبلها نثراً ، مما يدلُّ على أن النغم الذى قاله الله نَظْماً أو شعراً أو نثراً لا نشاز[1] فيه ، ويكاد أن يكون سَيْلاً واحداً .

وهذا لا يتأتَّى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى ، وأنت لن تشعر بهذا الأمر لو لم يُنبِّهْك أحد لِمَا فى بعض الآيات من وزن شعرى .

أما كلام البشر ؛ فأنت إنْ قرأتَ الموزون ؛ ثم انتقلت إلى المنثور ؛ أحسَّتْ أذنك بهذا الانتقال ؛ ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور ، ثم تنتقل إلى الموزون ؛ وستشعر أذنك بهذا الانتقال .

﴿ قَالَتْ فَذَالِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك بجراءة مَنْ رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه « استعصم » ، وهذا يعنى أنه قد تكلَّف المشقة فى حجز نفسه عن الفعل ، وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه لِيكبتَها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك وكأنها هى التى تُصدر الأحكام ، والسامعات لها هُنَّ من أكبرْنَ يوسف لحظة رؤيته ؛ تعلن لهُنَّ أنه إنْ لم يُطِعْها فيما

---

(١) نشز الشىء ينشز نشوزاً : ارتفع . وتل ناشز : مرتفع . ونشز فى مجلسه ينشز : ارتفع قليلاً . وأنشز الشىء : رفعه عن مكانه . [لسان العرب ـ مادة : نشز] .

تريد ؛ فلسوف تسجنه وتُصغِّر من شأنه لإذلاله وإهانته .

أما النِّسْوة اللاتى سَـمِعْنَها ؛ فقد طمـعتْ كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر ؛ حتى تنفرد أى منهن به .

ولذلك يُورِد لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام :

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ[1] عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[2] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ[3] ﴿٣٣﴾﴾

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال :

﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف]

على الرغم من أن امرأة العزيز هى التى قالت :

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ..﴿٣٢﴾﴾ [يوسف]

---

(١) الصرف : ردُّ الشيء من حال إلى حال . وصرف السـجين : أخلى سبيله ، وصرف القلوب يصـرفهـا : حـوَّلها من الـهدى إلى الضـلال : ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم .. ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة] أى : حوَّلها . [القاموس القويم ١/٣٧٤] .

(٢) صبا يصبو : مال وأحب ، قال تعالى : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وأفعل ما يغريننى به . وصبا إلى اللهو : حَنَّ واشتاق إليه. [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

(٣) الجهل : الطيش والسفـه والتعدى بغير حق ، والجهل : ضد العلم وهو الـخلو من المعرفة . واسم الفاعل « جـاهل » ، وصيغة المـبالغة « جهـول » ، ويتحدد معنى الجـهل بما يناسب المقام ، قال تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم ١/١٣٥] . بتصرف .

ونقول : لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشارات أو غمزات تُوحي له بألاَّ يُعرض نفسه لتلك الورطة التى ستؤدى به إلى السجن ؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام فى قوله المفرد - امرأة العزيز - فى جمع النسوة اللاتى جمعتهُنَّ امرأة العزيز ، وهُنَّ اللاتى طلبْنَ منه غَمْزاً أو إشارة أن يُخرج نفسه من هذا الموقف .

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه فى محاولة لاستمالته[1] ، وللعيون والانفعالات وقَسَمات الوجه تعبير أبلغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عُيونهن قد دلَّتْ يوسف على المراد الذى تطلبه كل واحدة منهن ، وفى مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دوراً هاماً .

وها هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس فى مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهوراً بقدرة كبيرة على الهجاء[2] . وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له : عزمتُ عليك إلا هجوتَ واحداً منا .

ودارت عيون فى المجلس ، وأشار له كل مَنْ حضر المجلس خُفية بأنه سيُجزل[3] له العطاء إن ابتعد أبو دلامة عن هجائه ؛ ولأن أبا دلامة معروفٌ بالطمع ، وخشى أن يضيع منه أىُّ شىء من العطايا ؛ لذلك قام بهجاء نفسه ؛ وقال :

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٠٧/٤) « أن كل واحدة طلبت أن تخلو به للنصيحة فى امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تعذله (تلومه) فى حقها ، وتأمره بمساعدتها . فلعله يجيب ، فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف اقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده ، فقال : يا رب كانت واحدة فصرْنَ جماعة».

(٢) هجاه يهجوه هجاء : شتمه بالشعر . وهو خلاف المدح . قال الليث : هو الوقيعة فى الأشعار . [لسان العرب - مادة : هجو] .

(٣) الجزيل : العظيم . وأجزلت له من العطاء أى أكثرت . وعطاء جزْل وجزيل إذا كان كثيراً . وقد أجزل له العطاء إذا عظم . [لسان العرب - مادة : جزل] .

ألا أبلــغْ لديْـك أباَ دلامة فليسَ منَ الـكرامِ ولاَ كرامه
إذَا لَبِسَ العِمَامَةَ كان قِرداً وخِنْزِيراً إذا خلَـع العمَامـه

وهكذا خرج من قِـسم الأمير ؛ وكسب العطايا التى وعـده بها مَنْ حضروا المجلس .

وهنا فى الآية التى نحن بصـدد خواطرنا عنهـا نجد يوسف عـليه السلام قد جمع امرأة العزيز مع النسوة ؛ فقال :

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. (٣٣)﴾ [يوسف]

أى : أن السجن أفـضل لديه من أن يوافق امرأة العـزيز على فعل الفـحـشاء ، أو يوافق الـنسوة علـى دعوتهن لـه أن يُحرِّر نفـسـه من السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ، فقال :

﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾ [يوسف]

ولسائـل أن يقول : ولماذا لـم يَقُلْ يوسف « يا إلهى » وهو يعلم أن مناط التكليف فى الألوهية بـ « افعل » و « لا تفعل » ؟

نقول : أراد يوسف أن يـدعو ربه باسم الربوبية اعـترافـاً بفضله سبحانه ؛ لأنه هو جَلَّ وعـلا مَنْ ربَّاه وتعهَّده ؛ وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألاَّ يتخلى عنه فى هذا الموقف .

فيـوسف عليه السلام يعـرف أنه من البشـر ؛ وإنْ لم يصرف الله عنه كـيـدهُنَّ ؛ لاسـتجـاب لغـوايتـهن ، ولأصـبح من الجـاهلين الذين لا يلتفتون إلى عواقب الأمور .

وعلى الرغم من أن السجن أمر كريه ؛ إلا أنه قد فضَّله على معصية خالقه ، ولأنه لجأ إلى المُربِّى الأول . لتأتى الاستجابة منه سبحانه .

يقول الحق :

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٤﴾

وهكذا تفضَّل عليه الله الذى خلقه وتولَّى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهُنَّ ؛ الذى تمثل فى دَعْوتهنَّ له أن يستسلم لِمَا دَعتْه إليه امرأة العزيز ، ثم غُوايتهن له بالتلميح دون التصريح .

تلك الغواية التى تمثلت فى قول الملك من بعد ذلك :

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ[1] إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ .. ٥١﴾ [يوسف]

وهكذا أنجاه الله من مكْر النسوة ؛ وهو جلَّ وعَلا له مُطْلق السمع ومُطْلق العلم ، ولا يخفى عليه شىء ، ويستجيب لأهل الصدق فى الدعاء.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ[2] لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ٣٥﴾

---

(١) الخَطْب : الشأن الذى تقع فيه المخاطبة والمساءلة . قال تعالى : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٥٧﴾ [الحجر] أى : ما شأنكم الهام . [القاموس القويم ١٩٨/١] وقال فى اللسان : « الخطب : الشأن أو الأمر ، صَغُر أو عظُم . ومنه قولهم : جَلَّ الخطب أى : عظم الأمر والشأن » .

(٢) قال ابن عباس : « القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدى من الآيات . وإعظام النساء إياه من الآيات » . ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٥٠٨/٤) .

وبعد أن ظهرتْ العلامـات الشاهدة على براءة يوسف عليه السلام أمـام العـزيز وأهل مـشـورته ، وانكشف لهم انحـرافُ امـرأة العـزيز وإصرارها على أن تُوقِع بيوسف فى الفعل الفاضح معها ، دون خَجل أو خوف من الفضيحة .

لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يُوضَع يوسف عليه السلام فى السـجن ؛ ليكـون فى ذلك فَـصْلٌ بينه وبينـهـا ؛ حـتى تهـدأ ضـجـة الفضيحة ؛ وليظهر للناس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذى ظهر فى بيت العزيز .

كما أن كلمة : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ.. (٣٥) ﴾ [يوسف]

فيهـا نوع من استبـقاء الحب الذى يُكِنُّه العزيز ليوسف ، فـهو لم يأمر بقتله أو نَفْيه بعيداً ؛ بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المُصِرَّة على الخيانة ، وعن المجتمع الذى يَلُوكُ تلك الوقائع .

والسجن ـ كـما نعلم ـ هو حَـبْس المسجـون لتقـيـيد حركـته فى الوجود ؛ وهو إجراء يتخذه القاضى أو الـحاكم كعقوبة يُراد بها إذلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شَرِّه .

ونعلم أن الإنسـان لا يجترىء على الأحكام إلا حـين يظن أو يعلم أن له قدرة ؛ وله غلبة ؛ فيعلن له القـاضى أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمـر بدخوله إلى السجن ويحرس تقـييد حريتـه سَجَّان ؛ وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المـتعارف علـيه فى العصـور القديمة والحـديثة ، حين تعزل المـسجون عن المجتمع ، وقـد يعطف عليه بعض من أبناء

المجتمع ، ويزوره بعضٌ من أقاربه ؛ ومعهم المأكولات ؛ والمطلوبات .

ولكن هناك سجن دينى أسسه رسول الله ﷺ ؛ حين عزل المجتمع الإيمانى عن السجين ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألاّ يُكلّم أحد الثلاثة[1] الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية ؛ بل وتسامى هذا العزل إلى أن صار عَزْلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف فى السجن ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ[2] قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا[3] وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[4] (٣٦) ﴾

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، أخرج مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه قصتهم كاملة فى التخلف عن الغزو مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥١١) : « قال « فتيان » لأنهما كانا عبدين ، والعبد يُسمى فتى ، صغيراً كان أو كبيراً ، ذكره الماوردى . وقال القشيرى : ولعل الفتى كان اسماً للعبد فى عرفهم ، ولهذا قال : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ (٣٠) ﴾ [يوسف] » .

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذى يغطى العقل ويذهب به ، وهى إما مأخوذة من خمرْتُ الشىء ، سترته لأنها تستر العقل ، أو من خمرت العجين : وضعت فيه الخمير فتفاعل معه فاختمر ، والخمر فى صنعها يوضع الخمير على العصير ويُترك حتى يخمر فتؤخذ منه الخمر ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ..(٢١٩) ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ..(٣٦) ﴾ [يوسف] أى : أعصر عنباً ليصير خمراً فهو مجاز مرسل علاقته ما سيئول إليه . [القاموس القويم ١/٢٠٩] بتصرف .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥١٢) : « إحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزِّى الحزانى . قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّع عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له » .

المعية التى دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هى معية ذات ، وقيلَ : إنهما الخبَّاز والساقى ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة بطَانة عزيز مصر فى التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هى فضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف ؛ ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقى والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السُّمِّ للعزيز[1] .

وبعد فترة من حياة الاثنين مع يوسف داخل السجن ، وبعد معايشة يومية له تكشَّف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حُلْماً ، فقررا أن يطلبا منه تأويل هذين الحُلْمين ، والسجين غالباً ما يكون كثير الوساوس ، غير آمن على غَده ؛ ولذلك اتجها إليه فى الأمر الذى يُهمهم :

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾[يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حُلْمين ؛ فواحد منهما رأى فى منامه أنه يعصر خمراً ، ورأى الثانى أنه يحمل خُبْزاً فوق رأسه تأكل منه الطير ، واتجه كلاهما - أو كُلٌّ منهما على حدَة - يطلبان - تأويل الرؤيين المناميتَيْنِ ، أو أنهما قد طلبا نبأ تأوِيل هذا الأمر الذى رأياه .

---

(١) مما ذُكر فى هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبَّازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه فدسُّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسمَّاه جميعاً ، فأجاب الخباز وأبى صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاستأنسا بيوسف . [تفسير القرطبى ٣٥١١/٤] باختصار .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عملُه مقاييسَ الإحسان فى ذهن مَنْ يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين فى الكون ، ونظروا إلى أىِّ أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لَعرفوا أن الإحسان قَدْر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص ـ على سبيل المثال ـ لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقته ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض فى أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إذن : إنْ أردتَ أن تعرف مقام الإحسان فى مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسَلْباً .

والمثال الذى أضربه دائماً هو : قبل أن تَمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسْن إنْ نقلتَ الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان ـ ميزانك للأمور ـ وقد اعتدل . وإذا أردتَ اعتدال الميزان فى كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح فى نفسك من الأمرين ستجد قب الميزان منضبطاً .

وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرَّم عليك أن تسرق غيرك ، لم يُضيِّق حريتك ؛ بل ضيَّق حرية الملايين كى لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إذن : فالذى يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استقبحه من الغير عليه ؛ فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلِم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذى جاءاه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيهما حاجتهما منه ؟

وكأنه قال لهما : ماذا رأيتُما من إحسانى ؟ هل رأيتم حُسْن معاملتى لكم ؟ أم أن كلاً منكما قد رأى دقة اختيارى للحَسَن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندى ـ بفضل الله ـ ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك فى الآية التالية :